الأديب والاصلاح الاجتماعى

للأســـتاذ أحمد محمد العظمة

لا مشـاحة أن للأديب تأثيراً قوياً فى النفوس والأفكار والعواطف والأخيلة ، وأن له أثراً جلياً فى حياة الأفراد والجماعات ، وأن النهضة الأدبية كثيراً ما تمهد للنهضة السياسية والاجتماعية والدينية ، وفى تاريخ الثورة الإسلامية والثورة الفرنسية مثلا مصداق ما نقول . ولا بدع فالأديب إذا بكا قلبه مثلا بكا يراعه ، وإذا ثارت نفسه ثار أسلوبه ، فكأنما هو يكتب بمداد من الدماء يكفى أن يبصره الناس حتى يهيج دماءهم ويخف بها إلى ما يريد منها ، وكأنما هو يخطب بأصوات من روحه لا من لسانه حسب الناس أن يسمعوها حتى تتصل بأرواحهم فتعمل فيها عمل العاصفة حيناً ثم تقذف بها حيث تريد (كجلمود صخر حطه السيل من عل) . وهذا من أسرار تلك الكهربية الأدبية التى تعمل عملها فى جوها الروحانى فلا يبلغ مبلغها إلاهيه . فليس الأديب إذن أديب الألفاظ الأصيلة ولا الأفكار الوزينة ولكن أديب الفن ، والفن رعشة روحانية تصطفى ما تشاء ثم توحى به نغما أو رسما أو كلما تفكيراً أو عاطفة أو خيالا .

إذا كان للأديب هذا الأثر فتعالوا نتساءل عن مبلغ اهتمام معظم أدبائنا بنا وتأثيرهم الاجتماعى التقدمى فينا .

فى ظنى أن الجواب يحمل دون ما ينتظر من أكثرهم ، فقد جروا مع الزمان كما أراد كأنهم ليس لهم فى الإصلاح من مراد ، إنهم يهتمون بأنفسهم أكثر من اهتمامهم بأوطانهم فلم يكونوا فاعلين بالهام الواجب ، بل كانوا ظاهريين انفعاليين بعامل البيئة ، ينظرون إلى ألوان الأشياء والحوادث وأشكالها ولا يتأملون فى حقائقها ومآلها ، كأنهم يهدفون إلى الجمال الظاهرى الآنى وحده ويجرون فى ذلك وراء غيرهم جنوداً ولا يجرون فى الطليعة قواداً ، رأوا الناس استساغوا منهلا فنهلوا منه وعلوا ، فبضاعتهم من الرأى تقليدية مخادعة لا ذاتية تأملية ، وقد تكون هذه البضاعة من البهرج الدخيل فى الأمة لا الجوهر الأصيل فيها ، وقد يكمن فيها استمرار فكرى أو انهيار خلق أو إنذار سياسى ، وقد تعقبها الواقعة فلا تجد الأمة لوقعتها دافعة .

غفل الناس عن ذلك كله فغفل الأدباء مثلهم أو تغافلوا فلم يكرهم أمرهم ليروه حقيقاً بالاعتداد به والاحتفال له ، وقد يكون من أسباب ذلك ظنهم أن الأدب ألهية الحياة فلم يجعلوه جهيراً للخير وبوقاً لليقظة وقد يتذمرون منه إن رأوه كذلك فى عيش يتفنونه رقيق الحواشى لا يعرف إلا هزلا .

وقد يلتمس بعضهم العذر لبعض وهو يراه على خطأ فى الرأى وصدق فى العاطفة الجامحة بأنه أديب والأديب مرآة يتراءى فيها كل ما يتجلى لها فليس فى تبديل ما يعرض له يدان ، وما ذلك بعذر لو كانوا ينصفون : فالأديب مرآة ولكنها عاقلة ، يصحب تشبهها وتلهيها إيمانها وتفكيرها وثقافتها وإرادتها وغايتها ، فليست مكرهة على أن تسف وتسخف ، بل ينبغى أن تصطفى مما يعرض لها ، وأن توجه الحوادث توجيهاً وتؤلف منها مظهراً جميلا لقصد رفيع تريفه ، كما يؤلف الكيمائى من مختلف العناصر جسما لم يكن وهو يريده ، وبذلك يثبت الأديب انفعاله بتأثير بيئته وعوامله الذاتية إثباتاً دفاعياً لا انخذالياً ، كما ترى ذلك مثلا فى العبرات للمنفلوطى ووحى القلم للرافعى .

أنا لست غافلا عما يؤلف فى الإصلاح الاجتماعى ، ولكنى لست أعنى الآن العلماء الباحثين والكتاب الصحفيين ، إنما أعنى الأدباء أولى الرعشات الروحانية الذين مهدت بالحديث عنهم ، فما أقلهم وإن كثرت الكتب والصحف ، وما أقل منهم حملة المصابيح فى دياجير الحياة الذين يصدر أدبهم حيوياً تغذوه عقيدة راسخة وثقافة جامعة ناضجة فلا يستعبدهم هواهم ولا يستبدبهم ولا يسخرهم تقليدهم ولا يسخر بهم . فأين أين ذاك الماء الزلال الذى يفيض عن معينه الثر الذى لا يتكدر ، ويصدر معينه عن السماء تمده بطلها وإن كان هو فى الأرض ؟

إن الأدب الربى لا يتعذر الإصلاح عليه فهو يستطيع أن يحيط خبراً بما بين الناس وأن يجتنب ما يحتاجون إليه مما يقوم حياتهم ويدرأ عنهم ما يتهددهم من الآفات الاجتماعية التى انسلت إليهم من سواهم ثم تفشت فيهم وجعلتهم يتداعكون وهم بين أعداء لها يحذرونها وأنصار يفخرون بها ويحضون عليها ، حتى لكأن أبا العتاهية يصدق فينا قوله :

إنا لفى زمن ملآن من فتن فلا يعاب به ملآن من فرق

يستبين من هذا كله أن على الأديب العربي اليوم أن يجعل حظه عظيما من بحوث الأخلاق والاجتماع وما إليها ، حتى لا يلتبس عليه الحق بالباطل والشراب الآجل بالسراب العاجل ، فيأخذ نفسه بما صح عنده من أحكام ، وما كرم من أخلاق وما سما من مقاصد ، ويدعو لذلك غير متريث ولا متهيب ، وقد يدعو هذا إلى شيء من المطاولة والتروى والمصاولة ، فلا ضير ، بل يجب أن يكون كذلك حتى يكون الأدب أو بعض الأدب عميقاً مع برهانه فلا يتهلهل عند النظر ولا يضمحل إزاء الحجة ، ولا يتمهل أمام الواجب .

إن المعركة الخلقية والاجتماعية اليوم من الخطورة بمكان ، فهي عند مفترق الطرق ، وهي معركة مبادئ تتصاول ليذهب زبدها جفاء ، ويمكث حقها في الأرض بعد ثبات أهله وصبرهم وجلدهم وحكمة قيادتهم .

إنها لمعركة مبادئ تبقى بعد الأمة العربية عربية تهتز بتاريخها المجيد ، أو تغدو غربية تعتز بتاريخ من ليس لهم للحق تاريخ إلا من صفحات العدوان على حق خنقوه ودم سفكوه ومجتمع أضلوه . وإن وراء الحق عقيدة صادقة ، وخلقاً كريماً ، وعزة ، وضياء ، وإن وراء الباطل تحللا ، وسفهاً ، وذلة وعماء ، وما يبدى الباطل وما يعيد .

فمن غير الأديب العربي الحي الأنف يطارحنا بلحنه الأخاذ فيهز القلوب والمشاعر والأفكار ، بل يهز الأرواح هزاً منبهاً إلى السبيل السوى الذى يجد أهله بعده عزهم وهداهم ونعماهم فلا يضلون في مهامه المذاهب الاجتماعية الكثيرة التي لا يكاد يتبين فيها السارى وضح الطريق ، وإنما يخشى ما فيها من متفجرات تدك بنيان النهضة من القواعد دكا ، ولا تلبث ذويه حتى يعودوا إلى أنفسهم نادمين فينشئوا الحياة ويبنوا المجد كبناء الأبوة الأمجاد .

إن الأمر حقيقة وجد وما هو بخيال وهزل ، فما أحرى الغير على يوم الأمة وغيرها أن يفكروا في هذا الضرب من الأدب والأدباء ، ولعل من الخير أن يدعوا إلى مؤتمر أدبي علمي عربي يجتمع مؤتمروه في إحدى عواصمنا كل عام ، فتعرض فيه مشكلاتنا الأخلاقية وآفاتنا الاجتماعية ويوجه نحوها الضياء ، ويوصف لها الدواء ، فيقوى الرجاء بأن العرب يسيرون قدماً إلى الأمام ودائماً إلى الأمام بعد أن صدروا عن عكاظهم الجديد عكاظ الخير والأدب والوطن العربي الكبير .

دمشق — أحمد مظهر العظمة

عدد « الرســـالة » السنوى « الممتـــاز »

سيصدر عددنا السنوى الممتاز في اليوم الخامس من شهر يناير سنة ١٩٤٨

حافـــلا على عادته

بالبحوث الاسلامية والأمجاد العربية

لنـــابهى الكتاب

في مصر والأقطار العربية